المحاضرة الاولى

أيها السادة

فى ضواحى سنتريس ، حيث يحلو السَّمَر ، فى ليالى القَمَر ، وعلى شاطئ النيل هناك ، حيث النجم والشجر ، والماء والزهَر : فى تلك البقعة المشتبهة الأزاهر ، المشتبكة الجداول ، حيث السواقي الشاديات ، والطيور الصادحات ، وتحت تلك الشجرة المعطَّفة الغصون ، المهدّلة الشعور ، حيث أجلس فى الضحى والظهيرة ، مع الصحب والعشيرة ، بجانب ذلك الطريق الجميل : حيث تغدو السيارات الفاخرة ، من القاهرة إلى الاسكندرية ومن الاسكندرية إلى القاهرة ، وحيث يمشى فضلاء سنتريس فى الأصائل والعشيات ، جماعات جماعات ، يتناشدون الأشعار ، ويتناقلون الأخبار .

هناك : حيث أستظرف الجلوس مع أولئك الأمجاد ، شجعان البلاد . أولئك الذين لم تخالط نفوسهم أوضار الحضارة ، ولا سموم المدنية ، ولم تفارق طباعهم أخلاق البداوة ، ولا رسوم العصبية ، أولئك الذين أجلس اليهم فيعود إلىَّ ضلالى القديم ، وعُدوانى

الموروث ، فأتمدَّح بأجدادى الشجعان ، وآبائى الأبطال . وأذكر ماشنُّوا من الغارات ، في العصور الخاليات

هناك حيث أقضى شطراً من الصيف . وجزءا من الخريف ، بين خطاب أكتبه ، أوجواب أقرؤه ، وحبيب أُساهره ، أو أنيس أُسامره ، وعهد أحنُّ اليه ، أو عيش أبكى عليه

ليالىَ النيل واللذاتُ ذاهبةٌ وجدى عليكن أشجانى فأضنانى
لو يرجع الدهر لى منكنَّ واحدةً فى سنتريسَ ويُدنى بعض خلانى
إذاً تبيَّن دهرى كيف يرحمنى من ظلم همي ومن عُدوان أحزانى (١)

هناك ، هناك جلست فى بعض الأصائل مع الصديق الحميم : الشيخ حسين الحكيم (٢) يحدثنى وأُحدثه عن الشاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة المخزومى

(١) هذه الأبيات من قصيدة للمؤلف

(٢) ولد الشيخ حسين الحكيم في سنتريس ثم سكن القاهرة والتحق بمدرسة عثمان باشا ماهر فمدرسة القضاء الشرعى ، ثم نال منها شهادة العالمية . وعين مدرسا للغة العربية بمدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، فقضى سنة في المدرسة الواصفية ببور سعيد . وبضعة أشهر فى مدرسة دسوق الثانوية ، ثم قضى نحبه هناك يوم الجمعة ٩ ربيع الأول سنة ١٣٣٧ ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ ثم نقل الى القاهرة مساء السبت فدفن بها مساء الأحد

وكان رحمه الله آية الآيات فى حسن الخلق ، وصباحة الوجه ، وحلاوة الحديث ، وأصالة الرأى ، وكان لا يعدله عندى غير شقيقى سيد مبارك الذى فقدته

وكذلك يميل الشباب الى شعر الشباب ، كما يرغب الكهول في أدب الكهول . فان للشبيبة شعراً ، وللكهولة شعراً . ولأدب الصبا في استطرافه أشياع وأتباع ، كما لحكمة الشيخوخة في رزانتها أنصار وأعوان

فلما قضينا بعض مآرب الشباب ، من الجرى في ميدان الخيال الساحر ، وشرحنا بعض أهوائنا وميولنا في شخص ابن أبي ربيعة ، وكانت الشمس قد جنحت الى الغروب ، ونسمات الأصيل قد مالت الى الهدوء ، وبدت لنا سنتريس وكأنها بَسْمةٌ في فم الكون يضمرها اذا جن الظلام ، فما تتبين منها غير المصابيح الزاهرة ، في المغاني الساهرة ، والأندية السامرة ، لم نجد بداً من العودة اليها ومساهرة السامرين فيها

ولأمر مّا أراد صديقي الشيخ حسين أن يذهب الى منزله في شمال البلدة . وأردت العودة الى منزلي في جنوبها الشرقي . بيد أنا لم نكد نبتعد كثيرا حتى سمعته يقول : اذا عدت غداً فأحضر معك ديوان ابن

معه في أسبوع واحد . وكان موتهما معا بالحمى الاسبانية لا رد الله لها غربة ولا قدر لها رجعة ، وكان أخي سيد من أقوى الفتيان بأساً وامضاهم عزيمة ولو عاش لضربت بشجاعته الامثال

أبي ربيعة . فقلت له مازحا : ومن ابن أبي ربيعة ؟ فأجاب مسرعا :
فتى قريش وشاعرها

فأعجبت بجوابه ، وسررت من بداهته . إذ علمت ان ابن أبي ربيعة مهما درسنا شعره ، وحللنا شخصيته ، فلن نجده إلا فتى قريش وشاعرها وكذلك أريد أن أحدثكم عنه من هذه الناحية : فأشرح لكم فتوته وشعره ، أو حبه ونسيبه

* * *

أيها السادة

ان الغرض من هذه المحاضرات انما هو البحث العلمي قبل كل شيء ، والوصول الى الحقيقة من أي سبيل ، وهنا ألفت نظركم الى ان العلم لا يكون دائما جافا ، بل قد يكون أحلى من المنى ، وأشهى من ثغور الحسان ، فإنك اذا احتجت الى شيء من الزهادة في العيش ، والرغبة عن الحياة ، لتفهم الجزء الثالث من كتاب الاحياء للغزالي ، والى قسط من الارتياب ، لتفهم حديث الملحد تيموكليس مع الراهب باقنيس ، للفيلسوف الالمعي فرانس ، فانك أيضاً في حاجة الى شيء من الخلاعة ، ونصيب من المجون ، لتفهم الشاعر الفتى عمر بن أبي ربيعة

وكذلك أدعوكم الى استقدام هوا كم : قديمه وحديثه ، واستنهاض صبابتكم : طريفها وتليدها ، حتى تفهموا هذا الشاعر الغَزِل ، وتدركوا غرض هذا الماجن الخليع

ولن تكونوا اذا فعلتم ذلك الا باحثين عن الحقيقة ، سائرين اليها عن طريق العلم ، فان أنواع العلوم تتطلب ألوانًا من النفوس ، بل الفن الواحد يتطلب أرواحاً مختلفة ، لفهم أدواره المختلفة ، فليس الذى يفهم نسيب الأمراء ويطرب له ، لأنه يساكن من يهوى ، ويختلف الى من يحب ، بقادر على أن يفهم نسيب المشرّدين فى الآفاق : ممن أهدرت دماؤهم ، وصُودرَت مُيولهم

وليس الذى يعجب بقول كثيِّر :

يكلفها الغيرانُ شتمى وما بها ... هوانى ولكن للمليك استذلّتِ
هنيئاً مريئاً غير داء مخامرٍ ... لعزة من أعراضنا ما استحلّتِ
فلا يحسب الواشون ان صبابتي ... بعزة كانت غمرةً فتجلتِ (١)

يستطيع أن يعجب بقول الآخر :

صفا ودُّ ليلى ما صفا ثم لم تُطع ... عدواً ولم نسمع به قِيل صاحب

---

(١) هذه الابيات من تائية كثير وهى غرة من غرر الشعر العربى يجدها القارىء كاملة فى كتاب مدامع العشاق

فلما تولّى ود ليلى لجانبٍ وقومٍ تولّينا لقومٍ وجانب
وكلُّ خليل بعد ليلى يخافني من الغدر أو يرضى بودٍّ مقارب

فاذا رأيتموني أكثر من الأمثلة ، وأُعنى بانشاد الشعر ، فليس ذلك لإمتاع افئدتكم ، وإشباع أسماعكم ، فحسب ، بل لأثبت فى أذهانكم وأمكن من قلوبكم صورة ذلكم الشاعر الشاب ، الذى قضت أيامه بأن لاتمتد اليه أيدى الرسامين والمصورين ، فلم يبق لنا من معالم جماله ، ومعاهد شبابه ، إلا ماتركه فى شعره ، وخلاّه فى نسيبه ، والشعر صورة الشعراء

* * *

وبعد فهل كان ابن أبى ربيعة محباً صادق الحب ، متين الصبابة ؟ أم كان فتًى مغروراً بشبابه ، مفتونا بجماله ، لا يأبه بالحب ، ولا يخضع للغرام ؟ واذا لم يكن عاشقاً ولا محباً ، فكيف أجاد النسيب ، وأبدع فى التشبيب ، وما هى ميزة شعره ، التى بذّ بها اخوانه ، وفاق بها أقرانه ؟ ؟

فأمامنا اذاً مسألتان : الأولى حقيقة حبه ، والثانية حقيقة شعره ، وسنوفى الكلام عن أولاهما فى هذه المحاضرة ، ونرجىء الكلام عن أخراهما الى المحاضرتين القادمتين ، إن شاء الله

أما حبه ، فأنا أتهمه فيه ، وأنكره عليه ، وذلك لأمور :

أولا لأنه حضرى لابدوى ، وقلما يصدق الحضريين حب ، أو تبقى لهم صبابة : إذ يرون من متممات الظرف ، ومكملات الأدب ، أن يحيا الرجل لعين باكية ، وقلب خفّاق : فلا يزالون يتلمّسون الهوى ويتحسّسون الصبابة ، حتى تتاح لهم أسبابها ، وتساق اليهم هومها

وأنا الذى اجتلب المنية طرفهُ فمن المطالب والقتيل القاتلُ

اذا رهب البدوى الحب ، فقال يتخوف عواقبه ، ويتهيّب جانبه :

فيارب خذ لى رحمةً من فؤادها وحُلْ بين عينيها وبين فؤادى

رأيت الحضرى شرِهاً طماعا ، يود لو حشر الله اليه أهل الجمال أجمع فنال من الصبابة أقصاها ، ومن المحبة أسماها ، وينشد قول ابن الاحنف

إن الهوى لو كان يَنْـ فُذ فيه حكمى أو قضائى
لطلبتهُ وجمعتهُ من كل أرض أو سماء
فقسمتهُ بينى وبيـ ـن حبيب نفسى بالسواء
فنعيش ما عشنا على محض المودة والصفاء
حتى اذا متنا جميـ ـعاً والامور الى فناء
مات الهوى من بعدنا أو عاش فى أهل الوفاء

كأنّ حتما على البدوى أن يخلد الى القناعة فى كل شىء ، وعلى الحضرى أن يُعرف بالجشع فى كل شىء .

ومن هنا تعرف كيف غابت العفة على أولئك ، وتطرق الفسق الى هؤلاء ، فاذا قلت للبدوى انشدنى شيئا من الشعر ، فقلما يروقه غير قول جحْدر وقد زُج فى السجن

أليس الليل يجمع أم عمرو . وإيانا فذاك لنا تدان

نعم وأرى الهلال كما تراهُ ويعلوها النهار كما علانى

واذا استنشدت الحضرى شيئا من مختاره فى النسيب ، فقلما ينشدك غير قول ابن الفارض

واذا اكتفى غيرى بطيف خياله فانا الذى بوصاله لا أكتفى

وذلك لما يختلف الفريقان فى فهم معنى السعادة فى الحب ، فهى عند الاعراب لا تعدو مسامرة الامانى ، ومسايرة الاحبة ، وعند أهل الحضر : كل ما أمتع العين والـ . . . الى غير ذلك مما يشتهون

واذا كان المال ـ وهو من معبودات الحضريين ـ يطلب بعضه للادخار وبعضه للانفاق ، فان الجمال عندهم كذلك ـ إلا من عصم الله ـ فهم يُعجبون بالعيون الكحيلة ، والشعور المرسلة ، ليمتعوا عيونهم بالنظر اليها وأفئدتهم بالتفكير فيها ، ثم لا تسأل بعد ذلك عن رأيهم فى بقية

المحاسن ، فعهدى بهم يرجون الخد للتقبيل ، والريق للارتشاف ، وهكذا حتى يصل بهم الطمع : الى ما ترغب النفس عن ذكره ، والتأمل فى جدواه .

الحسن عند الحضريين ، أشبه شيء بجنة وردها جَنِيّ ، وزهرها نَدِيّ ، يدخلها الزائر : فلا يعجب منها بزهرة ذات بهجة ، أو وردة ذات نضرة ، إلا دعته أخرى أنضر منها وأصبح .

فاذا ذهب اليها يجتلى حسنها ، ويتأمل شكلها ، لفتت نظره ثالثة ورابعة ، حتى يتصفح الحديقة بأكملها ، ويقتلها نظراً وشما ، والمرء يكلف بالحسن ، ويُغرم بالجمال .

فاذا عاد الى قلبه ، ورجع الى نفسه ، ليعرف أيها أعلق بخاطره ، وأملك لوجدانه ، حسبها هذه بل تلك ، ثم يختلط عليه الأمر ، فلا يدرى أيها أحق بالرعاية ، وأولى بالاحتفاظ : فينصرف وقلبه مسرور من البستان فى جملته ، غير مغرم بزهرة معينة من زهوره الحسان

وكذلك يمشى الحضرى فى متنزهات الحواضر ، فيرى من شتى الألوان فى الحسن ، ومختلف الاشكال فى الملاحة ، ما يملأ عينه ، ويبهر قلبه ، ثم يأوى الى بيته خليا من الهوى بريئا من الصبابة ، كأن لم يسمع وَسْواس الحلىّ ، ولم ير لألاء الجبين .

وهب أن بين أولئك الفاتنات ، من غلبت على قلبه ، واستولت على لبه ، أتراه يسلم فى أيامه البواقى ، من غادة أمامع شكلا ، وأحلى دلاّ ، فتملك من بعدها قلبه ، وتنفرد من دونها بهواه ، وهو للحسن تبوع ؟

ألا إن الحضرى فى حبه كمدمن الخمر ، يصرع كل يوم مرة : فينسى بكاسه الأخرى كاسه الأولى

والمرء ما دام ذا عين يقلّبها فى أعين الغيد موقوف على الخطر

ولقد ذكروا ان كثيّراً مشت أمامه امرأة ظريفة المشية ، فتبعتها عينه ، فالتفتت اليه ، فعرض عليها حبه ، فقالت : كيف ذلك وقد ضاع شعرك فى عزة ؟ فقال : يا سيدتى ! قد كان ذلك تصنعاً ورياء . ولكن أبحتنى حبك ، ومنحتنى حسنك ، لأسيرن فى ذكرك الشعر ، ولأضربن بحسنك الأمثال : فكشفت عن وجهها فأذا هى عزة . ثم قالت له : حسبك يا غادر ! فبهت كثير وانصرف : وهو خزيان نادم !

وكذلك كان ابن أبى ربيعة : فما قصر نفسه على امرأة ، ولا وقف حبه على فتاة . وإنما كان يتلمس الجمال بين مناسك الحج ، ويتلقّط الحسن فى مسارح الظباء : فيغشى الرياض الزاهرة ، عله يظفر بزهرة لا كالزهور ، ويقصد الأندية السامرة ، عساه يسمع حديثاً عن بعض

الآنسات الحور ، بل ربما صدَّ عمن تجزيه بالحب حباً ، ورام من تجزيه بالقرب الصدود .

ولقد مر به فتَيانِ وهو بالحِجْر يصلى ، بعد أن صوّح زهره ، وتأوّد غصنه ، وبعد أن سئم الغواية والفساد ، وجنح الى الهداية والرشاد ، وبعد أن خلّى الغرام جانبا وأقبل على نفسه يحاسبها ، وعلى ربه يستغفره ، فلم يكد يقضى صلاته حتى هرع إليهما يتعرف خبرهما ويعرف أهلهما . فلما عرفهما وكانا أخوين قال :

يا ابْنَى أخى : لقد كنت موكّلاً بالجمال أتبعه ، وانى رأيتكما فراقنى حسنكما وجمالكما فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه !

وليس بعجيب أيها السادة أن لا يصدق فى حبه من يقول :

سلامٌ عليها ما أحبت سلامنا فان كرهته فالسلام على الأخرى

ولا نريد بهذه الكلمة الغضّ من عواطف الحضريين ولا الطعن فى كرامتهم ، فقد يكون من بينهم من هو أصدق حبا ، وأنقى عرضا ، ولكننا نرى البشره فى الحب ، والطمع فى الصبابة ، من علائم التلون ، ودلائل التقلب [1]

---

(١) يرى الاستاذ الدكتور احمد ضيف ان العلم والفلسفة قد يهذبان النفس ، ويلطفان الطبع . فلا تكون الحضارة من أسباب الفسق ، ولا موجبات الفجور ، ثم لا يكون

ليس فى القلب موضع لحبيبين ولا أحدث الأمور اثنان
فكما العقل واحدٌ ليس يدرى خالقاً غير واحدٍ رحمن
فكذا القلب واحدٌ ليس يهوى غير فرد مباعد أو مدان
وكذا الدين واحدٌ مستقيمٌ وكفورٌ من عنده دينان
هو فى شرعة المودة ذو شر كٍ بعيدٌ عن صحة الإيمان

وكذلك كان الحضريون مكذّبين فى عشقهم ، متهمين فى حبهم

* * *

ثانيا — كثر غروره بشبابه ، وفتونه بجماله ، وتحدثه بحب النساء له ، وإقبالهن عليه . وقلما يكون المعشوق عاشقا ، والمحبوب محبا ، وقد رأيت فى شعره عزة المعشوق ، لا ذلة العاشق . وتيه المحبوب ، لا خضوع المحب

فتارة يذكر أنه أمنية محبوبته ، وأمل معشوقته ، كقوله :

البدوى أصدق من الحضرى فى الحب ، ولا أثبت منه في الغرام

وهى فكرة جميلة غير أنها لا تنطبق على ابن أبى ربيعة وأمثاله من الحضريين فان كثيرا منهم يشاركون الفلاسفة في سعة العلم ، وبعد النظر ، ثم لا يرون رأيهم في التقشف والزهد : واليهما يرجع الفضل في كبح الهوى وزجر النفس .

على أن المذاهب الفلسفية لا تدعو كلها الى الطهر ، ولا ترغب فى العفاف ولا ينتفع المرء بأحسنها أثراً مالم يصر من أربابها ، والداعين اليها ، في سره وجهره وشبابه ومشيبه ، والا فلماذا تجمع الحواضر بين العلم والفساد ؟

ألِمْ بزينب إن الركب قد أفِدا ... قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا (١)

قد حلفت ليلة الصَّورين جاهدةً ... وما على المرء إلا الحلف مجتهدا (٢)

لأختها ولأخرى من مناصفها ... لقد وجدت به فوق الذى وجدا (٣)

لو جُمِّع الناس ثم اختير صفوتهم ... شخصاً من الناس لم أعدل به أحداً

وقوله

وانها حلفت بالله جاهدةً ... وما أهلّ له الحجاج واعتمروا

ما وافق النفس من شىء تسرُّ به ... وأعجب العين إلا فوقه عمرُ

وأخرى يتمدح بعتبها عليه ، وتوددها اليه ، كقوله

فما أنس من ود تقادم عهده ... فلست بناسٍ ماهدت قدمى نعلى

عشيةَّ قالت والدموع بعينها ... هنيئاً لقاب عنك لم يُسْله مُسل

لقد كان فى إقراضك الودغيرنا ... وفعلك ناهٍ لى لو أن معى عقلى

فهذا الذى فى غير ذنب علمته ... صنيعك بى حتى كأنك ذو ذَحل (٤)

هل الصَّرم إلا مُسلمى إن صرمتنى ... الى سَقَمٍ ماعشت أو بالغ قتلى (٥)

---

(١) افد الركب : اسرع (٢) الصوران : مثنى الصور وهو موضع بالبقيع (٣) المناصف الخدم جمع منصف ومنصفة . وهى هنا الوصائف اللائى يقمن بخدمة الحسان

(٤) الذحل : الثأر . أو هو العداوة والحقد

(٥) ولقد ذكروا أن كثيراً عاب ابن أبى ربيعة فى قوله

قالت لزينب لما تحدثها ... لنفسدن الطواف فى عمر

وحينا يفخر بدموعها المرفضة لبعده ، المنهلة لهجره ، كقوله

تقول وعينها تذرى دموعاً لها نسق على الخدين تجرى
ألست أقرّ من يمشى لعينى وأنت الهم فى الدنيا وذكرى
أمن سَخَط علىّ صددت عنى حملت جنازتى وشهدت قبرى

وآخر يصف نفسه بالجمال اليوسفى فيقول

فان هذا الذى نلومك فيه لاتحجى من قولنا بفتيل

قومى تصدى له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها قد غمزته فأنى ثم استبطرت تسعى على أثرى

وقال له : انما تنسب بنفسك ، ولو أنك وصفت بهذا الشعر هرة أهلات . لكنت قبحت وقلت الهجر ، انما توصف الحرة بالحياء والاباء ، والبخل والامتناع . كما قال هذا ، وأشار الى الاحوص

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زواراً ولكن ذا الهوى اذا لم يزر لابد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى الى معروفها لفقير

وقد لاحظ عليه ذلك ابن أبى عتيق أيضا فى قوله

بينما ينعتنى أبصرتنى دون قيد الميل يعدو بى الاغر
قالت الكبرى أما تعرفنه قالت الوسطى بلى هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

وعندى أن هذا خطأ من كثير وضلال من ابن أبى عتيق . وليس لابن أبى ربيعة فى صباحته ان يتبع رأى كثير فى دمامته فان لجمال الشاعر أثراً فى نسيبه ونصيبا من تشبيبه وقد أوضحت ذلك فى المحاضرة الثالثة فانظره هناك

فصِليه فلن تلامى عليهِ فهو أهل الصفاء والتنويل

وانه ليُغْرِب أحياناً فى الصَّلَف ، ويُمعن فى التيه : فيقول مثلا :

الت على رِقْبةٍ يوما لجارتها ماتأمرين ؟ فان القلب قدتُبِلا[1]

هل لىَ اليوم من أخت مُواسيةٍ منكنَّ أشكو اليها بعض ماعملا

راجعتها حَصَانٌ غير فاحشةٍ برجْع قول ولبٍّ لم يكن خَطِلا[2]

لا تذكرى حبَّه حتى أراجعهُ انى سأكفيكِهِ ان لم أمت عَجلا

اقْنَىْ حياءك فى ستر وفى كرمٍ فلستِ أول أنثى عُلِّقت رجلا[3]

عدت بعاداً وقالت لاتى معها بالله لوميه فى بعض الذى فعلا

حدثيه بما حُدِّثت واستمعى ماذا يقول ولاتَعِيْ به جَدَلا

حتى يرى ان ما قال الوشاة لهُ فينا لديه الينا كله نقلا

عرّفيه به كالهزل واحتفظى فى غير معتبة ان تغضبى الرجلا

ان عهدى به والله يحفظه وان أتى الذنب ممن يكره العذلا

عندنا اغتيبَ أو نِيلت نقيصتهُ ما آب مغتابه من عندنا جَذِلا

ويقول أيضاً فى الحديث عن بعض الواجدات به :

---

(١) تبل القلب : اسقمه الحب (٢) الحصان والحاصن المرأة العفيفة ، ونساء حواصن

(٣) اقنى حياءك : الزميه

لقد حلِيتْك العين أول نظرةٍ وأعطيتَ منى يا بن عمّ قبولا
فأصبحتَ همًّا للفؤاد ومُنية وظلاًّ من النُّعمي علىَّ ظليلا

فهذا كله دليل على أن ابن أبى ربيعة كان معشوقا لا عاشقاً، ومطلوباً لا طالباً، وأن النساء كانت تقع عليه كما يقع النحل على الزَّهَر، والطير على الشجَر

* * *

ثالثاً — كثرت دعوى ابن أبى ربيعة توحيد حبه، وإفراد غرامه، فيقول فى ليلى

لقد أرسلت فى السر ليلى تلومنى وتزعمنى ذا مَلّة طَرِفا جَلْدا (١)
تقول لقد أخلفتنا ما وعدتنا ووالله ما أخلفتها طائعاً وعدا
فقلت مَرُوعاً للرسول الذى أتى تراه لك الويلات من أمرها جدا
إذا جئتها فاقر السلام وقل لها
ذَرِى الجور ليلى واسلكى منهجاً قصدا
تَعدِّين ذنباً أنت ليلى جنيتِه علىَّ ولا أحصى ذنوبكمُ عدا
أفى غيبتى عنكم ليالٍ مرضتها تزيدينى لَيْلَى على مرضى جَهْداً

(١) الطرف : هو المتقلب الذى لا يثبت على امرأة ولا صاحب

فلا تحسبى أنى تمكّنتُ عنكمُ ونفسى ترى من مَكْثها عنكمُ بُدا
ألا فاعلمى أهلى أشد صبابة وأصدق عندالبين من غيرنا عهدا
غداً يكثر الباكون منا ومنكمُ وتزداد دارى من دياركمُ بُعدا
فان تصرمينى لا أرى الدهرَ فرةً لعينى ولا ألقى سروراً ولا سعداً
فان شئت حرمت النساء سواكمُ
وإن شئت لم أطْعم نُقَاخاً ولا بَرْدا (١)

ويقول فى الرباب

أرسلت تعتب الرباب وقالت قد أتانا ما قلت فى الانشاد
قلت لا تغضبى فداؤك نفسى ثم أهلى وطارفى وتلادى
إن تعودى تكن تهامة دارى وبنجدٍ إذا حلات معادى
أنت أهْوَى إلىّ من سائر النا سِ ذرينى من كثرة التعداد

ويقول فى عبدة :

عبْدةُ ماينسى مودتَكِ القلبُ ولا هو يُسليه رخاءٌ ولا كَربُ
لاقول واش كاشحٍ ذى عداوةٍ ولا بُعد دار إن نأيتِ ولاقربُ
ما ذاك من نُعمى لديكِ أصابها ولكنَّ حبًّا مايُقاربهُ حبُّ
ان تقبلى ياعبد توبة تائب يتب ثم لايوجَدْ لهُ أبداً ذنبُ

(١) النقاخ على وزن غراب الماء العذب

أذلٌّ لكم ياعبد فيما هويتمُ ... وإنى إذا مارامنى غيركم صعَبُ
وأعذل نفسى فى الهوى فتعقنى ... ويأصِرنى قلب بكم كَلِفٌ صبُّ
وفى الصبر عمن لايواتيك راحةٌ ... ولكنه لاصبرَ عندى ولا لبُّ
وعَبدة بيضاء المحاجر طَفلةٌ ... منعّمةٌ تصبى الحليم ولا تصبو
ولست بناسٍ يوم قالت لأربع ... نواعم غُرٍّ كلهن لها تربُ
ألا ليت شعرى فيم كان صدودهُ ... أَعُلّق أخرى أم علىّ به عَتْبُ

ويقول فى زينب [1] :

أُحدِّث نفسى والأحاديثُ جمةٌ ... وأكبر همّى والأحاديث زينبُ
اذا طلعت شمس النهار ذكرتها ... وأُحْدِث ذكراها إذا الشمس تغرب

---

(١) هي زينب بنت موسى الجمحية . وكان سبب تشبيبه بها أن ابن أبى عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ، ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ماشغل قلب عمر . وأماله إليها فقال فيها الشعر وشبب بها . فلما بلغ ذلك ابن أبى عتيقٌ لامه وسخط عليه . وقال له : أتقول الشعر في ابنة عمى ؟ فقال ابن أبى ربيعة وقد عطف عليه المساءة

لاتلمنى عتيق حسبى الذى بى ... ان بى ياعتيق ماقد كفانى
لاتلمنى وأنت زينتها لى ... أنت مثل الشيطان للانسان
لو بعينيك ياعتيق نظرنا ... ليلة السفح قرت العينان

وقد زعم في هذه القصيدة أنه نسى من أجلها النساء اذ يقول

لم تدع للنساء عندى نصيباً ... غير ما قلت مازحاً بلسانى
وقلى قلبى النساء سواها ... بعد ما كان مغرماً بالغوانى

ويقول فى أسماء

لم يحب القلب شيئا مثل حبكمُ ولم تر العين شيئا بعدكم حَسَنا
ما إن نبالى اذا ما الله قربكم
من كان شط من الاحباب أوقطنا[1]

فان نأيتم أصاب القلبَ نأيكمُ وان دنت داركم كنتم لنا سكنا
ان تبخلى لايسلّى القلب بخلكمُ وان تجودى فقد عنّيتنى زمنا

ويقول فى هند :

ولقد قلت إذ تطاول هجرى ربِّ لاصبرَ لى على هجر هندِ
رب قد شفّنى وأوهن عظمى وبرانى وزادنى فوق جَهْدى
ليس حبى لها ببدعة أمرٍ قد أحب الرجال قبلى وبعدى
جعل الله من أُحب سواكم من جميع الأنام نفسك يفدى

ويقول فى النوّار

لاأبالى اذا النوى قربتكم فدنوتم من حَلّ أو من سارا
والليالى اذا نأيتِ طوالٌ وأراها إذا دنوتِ قصارا

ويقول فى عمرة

حدى بنى أود كلفت بهما حملت بلا تِرةٍ لنا وِتْرا

---

(١) شط : بعد — قطن : أقام

والله ما أحببت حبكم لاثيباً خلقت ولا بكرا

وأظهر من كل ماتقدم قوله فى عثمة

ماخنت عهدك ياعثيم ولاهفا قلبى الى وصلٍ لغيرك فاعلمى

ولايمكن أيها السادة أن تكون كل هذه الدعاوى صحيحة . فإن كَذَب بعضها كان دليلاً على كذب البواقى ، فهو إذاً محتالٌ ماهر يُقسم لكل غانية يمينا . والغوانى سريعة التصديق [1]

(١) قد وافقنا على هذا الرأى كثير من شيوخ الادب ، وأساتذة البيان ، وفى مقدمتهم الاستاذ الشيخ مصطفى القاياتى والاستاذ الدكتور احمد ضيف وخالفنا فى ذلك الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : فهو يرى أن تعدد المعشوقات لايدل على الكذب فى الحب ، فقد يخلص المحب فى يومه إلى إحدى الغانيات ، ثم يصفى غيرها الود فى الغد ، ولا يكون كاذباً فى حبه الاول ، ولا متهماً فى وده الثانى ، بل قد يفنى فى حبه لبعض الغوانى ثم ينصرف عنها ثم يعود إليها ، كما قيل :

هجرتك حتى قيل لايعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

ولكن ألا يرى فضيلة الاستاذ الشيخ النجار أن هذا من ابن أبى ربيعة وأمثاله تقلب فى الحب ، وتلون فى الود ، وانه إن لم يكن كل الكذب فهو بعض الكذب ؟ أبعد وفياً من قلبه كل يوم فى حب جديد . أو يحسب صادقاً من لم يكن ذا وفاء ؟ إن هذا لبعيد .

هذا ، وقد عرض أستاذنا الدكتور طه حسين لحب ابن أبى ربيعة فى كتابه حديث الاربعاء ج ٢ ص ١٤٣ فذكر انه لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه وانما كان يحب بحسه ، وبحسه ليس غير . ثم قرر أنه لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكمة للرجل لانستطيع أن تعيش بدونه وانه لم يكن يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المادى وحده وانه كان يريدها واسعة متناولة جميع أطراف الحياة

رابعاً — قد جاء فى شعره ما يدل على أن النساء عرفن فيه التلوّن ، عهدن منه التقلب . فمن ذلك قوله :

عجباً ما عجبتُ مما لو أبصر ت خليلى ما دونه لعجبتا
لقال الصفىّ فيم التجنى ولما قد جفوتنى وهجرتا ؟
فى بكاءٍ ، فقلت ماذا الذى أبـ ـكاك قالت فتاتها : ما فعلتا
ولوت رأسها ضراراً وقالت إذ رأتنى : اخترت ذلك أنتا
حين آثرتَ بالمودة غيرى وتناسيت وصلنا وملِلْتا
قلتَ لى قولَ مازح تستبينى بلسانٍ مصدّق إذ حلفتا
عاشرى فاخبُرى فمن شؤم جدّى وشقائى عُوشِرْتَ ثم خُبِرتا
فوجدناك إذ خَبرنا ملولاً طَرِفاً لم تكن كما كنت قلتا
وتجلّدت لى لتصرم حبلى بعد ما كنت رثّهُ قد وصلتا
فاذكر العهد بالمحصّب والودّ الذى كان بيننا ثم خُنتا (١)
ولعمرى ماذا بأول ماعا هدتنى يابن عمّ ثم غدرتا
فحرامٌ علىّ أن لاتنال الد هر منى غير الذى كنت نِلتا (٢)
قلت مهلا عفوا جميلا فقالت لاوعيشى ولو رأيتك مِتا

---

(١) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى (٢) الظاهر أن « لا » زائدة فى قوله : فحرام على أن لا تنال

ويقول فى الحديث عن بعض معشوقاته :

قالت وقد جدّ رحيل بها والعين ان تطرف بها تسجم
ان ينسنا الموت ويؤذن لنا نلقك ان عمرت بالموسم
إنك والله لذو ملة يصرفك الأدنى عن الأقدم

ويقول أيضا فى الحديث عن بعضهن

قالت لآنسة رداح عندها كالرئم فى عقد الكثيب الأيهم
هـذا الذى منح الحسان فؤاده وشركنه فى مخه والأعظم
عامي به والله يغفر ذنبه فيما بدا لى ذو هوى متقسم
طرف ينازعه الى الادنى الهوى ويبت خلة ذى الوصال الأقدم

وقد كثر شعره فى هذا المعنى ، حتى لقد يذكر شتمهن له ، وعتبهن عليه ، كقوله :

وقالت حلت عن عهدى وودى جديد ماحييت لكم يسير
وطاوعت الوشاة وزرت من لم يزرك وقد تبين لى الختور
ولم ترع الوداد كما رعينا وبانت منك لى عمداً أمورُ
ولم تجزِ القروض ولم تُثبها وأنت لكل صالحةٍ كفورُ

وقد أقر نفسه بالتلوّن ، وصرّح بالتقلّب ، فى قوله

لعمرى لقد كان الفؤاد مسلّماً صحيحاً فأمسى لايُطيق لها هجرا

فجازى ودوداً كان قبلك فى الهوى دءولاً فقد أورثته السُّقم والضُّرا
أفى الحق أَنْ حُكِّمتمُ فحكمتمُ صواباً فما أخطأتم الظلم والكفرا

وأين هذا أيها السادة من قول مضرس بن قرط المازنى :

ولو تعلمين العلم أيقنتِ أننى وربِّ الهدايا المشعَرات صدوقُ
أذود سَوَامَ الطرف عنك وماله إلى أحدٍ إلا عليكِ طريق
فإن كنت لمَّا تَخبُرينى فاسألى وبعض الرجال للرجال رَمُوقُ
سَلى هل قلانى من خليل صحبته وهل ذمّ رحلى فى الرحال رفيق؟
وهل يَجْتوى القوم الكرام صحابتى اذا اغبرَّ مُخْشِىٌّ الفِجاج عميق

* * *

فياليت شعرى وقد بينت لكم كذبه في الحب — ماهى الميزة التى سما بها شعره ، وسار بها ذكره ؟ وما هو السر فى أَنْ سَحَر شعره النساء ، وآمن به الشعراء ؟